مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 17، العدد 01، 15 جانفي 2021، ص ص629-643

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الممارسات الصوفية في البيئة الأندلسية من خلال موافقات الشاطبي

-دراسة أنثروبولوجية دينية-

Sufi practices in the Andalusian environment through the approval of Shatby

-Religious anthropological study-

حسناوي عيسى*

جامعة أبو بكر بلقايد- تلمسان -الجزائر-

hasaissa9@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/07/06 تاريخ القبول: 2020/08/29

ملخص:

يهدف هذا البحث لدراسة مجموعة من الممارسات الصوفية في البيئة الأندلسية؛ سواء ما عد منها من مصادر العرفان الصوفي وأبواب تحصيل العلوم؛ كالكرامات، وخوارق العادات، والكشوف، والمنامات، أو ما اعتبر من الطقوس المميزة ؛كالخلوة، والعزلة عن الناس، والتزام طاعة الشيخ المربي، والمواظبة على الورد مع الورع والتقلل من الدنيا، وهذا من خلال ما سطره الشاطبي في موافقاته، باعتباره أحد أبناء القطر الأندلسي، وذلك وفق الأطر المرسومة في علم الأنثروبولوجية الدينية والقواعد المتبعة فيها .

وقد توصلت هذه الدراسة إلى أن البيئة المغربية الأندلسية حوت كأختها المشرقية مجموعة من الممارسات الخاصة بطائفة الصوفية، وأن كتاب الموافقات للشاطبي وإن كان يبحث في أصول الشرائع ومقاصدها إلا أنه جاء حاويا لمجموعة لا بأس بها من الطقوس والممارسات الصوفية.

الكلمات الدالة: الممارسات الصوفية، الأندلس،الشاطبي،الموافقات، الأنثروبولوجيا، البيئة المغربية.

Abstract:

This research aims to study a set of Sufi practices in the Andalusian environment. Whether it comes from the sources of Sufi Sufism and the chapters on obtaining science.

Karmat, and paranormal habits, revelations, dreams, or what is considered a distinct ritual; such as being alone, isolation from people, commitment to obeying

* **المؤلف المرسل:** حسناوي عيسى، **الايميل:** hasaissa9@gmail.com

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

the sheikh, and persevering with roses with piety and underestimating the world, and this is through what Shatby stipulated in his approvals, as he is one of the Andalusian countries And, according to the frameworks drawn in religious anthropology and the rules followed.

Keywords: Sufi practices; Shatby; Andalusia; Almuafaqat; Anthropology; the Andalusian Environment.

مقدمة:

الممارسات الدينية الإسلامية وليدة المنهج المعتمد في فهم نصوص الإسلام كتابا وسنة؛ ولأجل هذا نجد التباين الواسع أحيانا بين مختلف الفرق والطوائف المنتسبة له فيما تعتبره من أصيل الدين وما تعده من دخيله.

ومن أبرز الفرق المنضوية تحت لواء هذا الدين والتي اشتهرت بنواميس وطقوس خاصة كانت فيها وحيدة نفسها نحلة الصوفية التي وضعت هيكلية لهذه الممارسات بحسب المقامات والدرجات، وصنف أربابها كتبا منبئة عن ذلك وشارحة له.

وقد جاء هذا البحث ليطل على بعض هذه الممارسات والأنماط التعبدية في البيئة الأندلسية من نافذة كتاب الموافقات للشاطبي، محاولا الإجابة عن التساؤل عن أنواع الطقوس الصوفية المنتشرة في الأندلس الواردة في هذا السفر؟وعن حكم صاحبه عليها؟ .

وقد هدف لكشف النقاب عن جملة الأشكال والأنماط التعبدية التي عرفت بها نحلة الصوفية، مع بيان التخريج الفكري الذي نصبه الشاطبي لها؛ إذ أن مقصد كتابه الموافقات بيان أصول الشرائع ومقاصدها.

ولتحقيق هذه الأهداف اعتمدت المنهج الاستقرائي التوثيقي والمنهج التحليلي، والله أسأل التوفيق والسداد إنه حميد مجيد.

أولا:مدخل إلى علم الأنثروبولوجيا الدينية و تعريف بظاهرة التصوف الأندلسي:

أحاول في هذا المدخل إعطاء صورة عامة عن هذا العلم من حيث بيان علاقته بأصل علم الأنثروبولوجيا، ومن جهة التعريف به، وبيان موضوعاته، مع الوقوف على ظاهرة التصوف في هذه البيئة الأندلسية من حيث منشئها، وانتشارها، وتمركزها، والتدليل على عناية الشاطبي بهذه الممارسات في كتابه الموافقات؛ وهذا موضوع ما يأتي.

1 مدخل إلى علم الأنثروبولوجيا الدينية:

من المعلوم أن كلمة أنثروبولوجيا (anthropologie) من حيث اشتقاقها اللغوي مركبة من مفردتين إغريقيتين الأولى:anthropos ومعناها (إنسان)، والثانية: و logos ومدلولها (علم) أو (دراسة) أو (بحث)، ومنه فإن مدلول الكلمة مجتمعة (علم الإنسان) أو (دراسة الإنسان).(حسن كريم ماجد وفريقة البحثي:212/1) و (مصطفى تيلوين2011: 19).

أما من حيث مدلولها الاصطلاحي كعلم من العلوم فقد عرفت بعدة تعريفات منها أنها "علم من العلوم الإنسانية يهتم بمعرفة الإنسان معرفة كلية وشمولية".(مصطفى تيلوين2011: 19)، ومنها كذلك أنها"علم دراسة الإنسان طبيعيا، واجتماعيا، وحضاريا"(شاكر سليم56:1981).

إذا فاهتمام علم الأنثروبولوجيا منصب على دراسة الإنسان من جميع جوابه سواء الفيزيقية، أو الثقافية ، أو الاجتماعية، أو التاريخية، أو النفسية؛ وهذه الشمولية المعرفية هي التي جعلت هذا العلم تنضوي تحت لوائه جملة من الامتدادات الفكرية المعرفية باعتبار المنحى الإنساني المبحوث فيه.(نبيل الحسني 2009: 17).

ومن هنا يمكننا التساؤل عن محل دراسة الأديان من هذا العلم؟ فيكون الجواب أن بحث الأديان أو الأنثروبولوجيا الدينية هي أحد فروع الأنثروبولوجيا الثقافية التي تهتم بالقيم الثقافية كالعادات، والتقاليد، والطقوس الدينية، والإديولوجيات التي تتحكم بالمجتمعات.(مصطفى تيلوين2011: 19).

ومن جهة أخرى فإن علم الأنثروبولوجيا يبحث في الإنسان، والإنسان هو محور الرسالات السماوية؛ فقد جاءت للتأصيل لعلاقته الروحية التي تربطه بربه وخالقه، وعلاقاته المادية التي تصله ببني جنسه من الأقارب والأباعد؛ سواء كانت هذه الصلات اجتماعية، أو ثقافية، أو سياسية، أو اقتصادية؛ وهذا في الحقيقة مجال الدراسات الأنثروبولوجية.(حسن عالي وبوشيخاي إسماهان:314).

وعليه ومن خلال ما تبين سابقا يكننا أن نعرف الأنثروبولوجيا الدينية بأنها "تحديد التشريعات الدينية ضمن البنيات الاجتماعية؛ وذلك بالبحث عن الوضائف الكامنة وراء هذه التشريعات داخل المجتمع"(روجي باستيد:1).

ومنه فإن أنثروبولوجيا الدين لا تقتصر على وصف الأمور الدينية وتفنيدها وتصنيفها، بل ترى أن الدين جزء من الثقافة يبحث فيه عن تفسير أوجه الشبه والاختلاف بين المظاهر الدينية في المجتمعات المختلفة، دون تخصيص بأصل الدين كالسماوي منها مثلا، أو بمكانه كديانات العالم الثالث مثلا؛ بل يعم الطقوس النيبالية، والأساطير الإفريقية، والشامانيةالسيبيرية، وسحر إقليم بريطانيا...وغير ذلك، ثم هي تدرس الدين باعتباره تجربة وليس عقيدة وممارسة دينية عادية، وتحاول الوصول إلى الأسلوب الذي تؤثر به العقائد على الحياة. (كلود ريفيير 2015: 20،22).

2 التعريف بظاهرة التصوف الأندلسي :

من المحطات التي يحسن الوقوف عندها بين يدي التعريف بالممارسات الصوفية في البيئة الأندلسية؛ التعرف على ظاهرة التصوف في هذه البيئة من حيث منشئها، وانتشارها، وتمركزها، والتدليل على عناية الشاطبي بهذه الممارسات في كتابه الموافقات؛ وهذا موضوع ما يأتي.

إن التصوف بمفهومه الذي يرمي إلى تسليط مقتضيات العقول وثمرات الإيمان على دواعي الحس قصد التحرر من قيد الملذات المادية وتفجير المسرات الروحية؛ وذلك بترك ما لا ينفع في الآخرة، و النأي عن مجاراة العامة في مكاسبهم ومعايشهم، وهجر أبواب السلاطين ومجالسه، والرضا بالقليل مع التقيد في ذلك كله بقوانين الشرع وأحكامه، قد ظهر في الأندلس في حدود القرن الثاني الهجري؛ وهذا في مختلف طبقات المجتمع، وممن عرف بذلك في الطبقة الحاكمة داود بن ميمون بن السعيد الذي دخل والده مع عبد الرحمن بن معاوية الداخل من العدوة المغربية فولاهطليطلة؛ ومع أن داود هذا نشأ في بيت سلطنة فيه من كل ملذة زوجان إلا أنه هجر ذلك كله حتى صار أواحد أهل عصره في النسك والورع والزهد (ابن الأبار1995: 255/1)، وممن اشتهر بهذا في طبقة العلماء زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون (ت:193هـ) أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس؛ وقد كان تقيا ورعا زاهدا حتى أنه خرج هاربا لما طلبه الأمير هشام للقضاء (عياض1966: 118/3).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ومع مطلع القرن الثالث الهجري بدأ التوجه الصوفي يأخذ منحى أضيق مما عرف به قبل ذلك؛ فقد بدأت البوادر الأولى لتكوين الجماعات الصوفية؛ وهذا باجتماع أهل النسك والتزهد على مقدم فيهم يأخذون عنه، ومن أولائك أصبغ ابن مالك القرطبي(ت:299هـ) الذي كان يجتمع حوله ويؤخذ عنه (ابن الفرضي1988: 95/1) (عبد السلام الغرميني2000: 51).

لتظهر في القرن الذي يليه بداية المدارس الصوفية التي تترأسها شخصيات محددة تعرف بتوجهاتها الخاصة، أو بانتمائها إلى أحد المدارس المشرقية المعروفة، ومن هذا المدارس مدرسة ابن مسرة الأندلسي(ت:319)، ومدرسة أبي بكر الألبيري الزاهد(ت:396هـ)، ومدرسة أبي الحكم ابن برجان الإشبيلي(ت:536هـ)، ومدرسة أحمد بن محمد المعروف بابن العريف (ت:536هـ)، وغيرها من المدارس التي كانت النواة لبعث الممارسات الخاصة بكل طائفة أو الطقوس المعرفة بها من إشارات فلسفية إلى ادعاء الكشوف والخوارق وغير ذلك. (عبد السلام الغرميني2000: 54،84،114،129،137).

في هذه البيئة ولد الشاطبي ونشأ وتعلم وعلم وألف كتابه الموافقات الذي اعتمد في بيان تسميته على بشرى منام رئي له؛ وتفصيل ذلك أن الإمام عزم على تسمية كتابه المذكور بعنوان التعريف بأسرار التكليف؛ وهذا لأجل ما أودع فيه من الأسرار التكليفية المتعلقة بالشريعة الحنيفية، غير أنه قرر تغيير هذا الاسم بعد أن لقيه أحد مشايخه ممن كان له منه استفادة، فأخبره أنه رأى فيما يرى النائم أن الشاطبي كتب كتابا سماه الموافقات، فسأله عن هذه التمسية الغريبة فأخبره أنه وافق به بين مذهبي ابن القاسم وأبي حنيفة(الشاطبي1997: 10/1)، ولعل هذه الحادثة توحي ببعض أثر البيئة التي عشش فيها الفكر الصوفي على هذا الإمام إذ استند على منام في تغيير تسمية كتابه مع أن العنوان المقترح أولا كان أنسب لمضمون الكتاب(محمد المنتار:10).

أما عن موضوع الكتاب فهو كما سبقت الإشارة يبحث في أصول الشرائع ومقاصدها، ومع هذا لم يخله صاحبه من التعرض لبعض الممارسات الصوفية التي شهدها عصره، و المتأمل في مقدمة الكتاب يجد إشارات لذلك ومنها قول الشاطبي"...إلى أن من الرب الكريم... فبعثت له أرواح تلك الجسوم، وظهرت حقائق تلك الرسوم... وجاء الحق فوصل أسبابه وزهق الباطل فبان، فأورد من أحاديثه الصحاح الحسان... إيرادا يميز المشهور من الشاذ، ويحقق مراتب العوام والخواص والجماهير والأفذاذ، ويوفي حق

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

المقلد والمجتهد والسالك والمربي والتلميذ والأستاذ، ... ليخرجوا من انحرافي التشدد والانحلال، وطرفي التناقض والمحال..." (الشاطبي1997: 1/8-9)

فمن مقاصد الكتاب إذا تحقيق مراتب الخواص والعوام، وبيان السالك والمربي، والتصدي للتشدد والانحلال؛ وهذا من الإشارات الواضحة لما تضمنه الكتاب من طقوس الصوفية وممارساتهم.

ثانيا:الطقوس والممارسات الصوفية المضمنة في كتاب الموافقات:

1مصادر العرفان الصوفي:

من الممارسات الصوفية التي نص عليها الشاطبي في موافقاته ما يعده أرباب الطرق الصوفية من مصادر تحصيل العلوم و التحقق بالمقامات، ومنها:

الكرامات وخوارق العادات:وهي من أجلى الممارسات الصوفية غير الكسبية التي تشحن بها تراجمهم للدلالة على تأهلهم لمقام الولاية، وبلوغهم مراتب الكمال في الطريق، وهي عند القوم "أمر خارق للعادة غير مقرون بالتحدي، يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح، ملتزم لمتابعة نبي من الأنبياء عليهم السلام، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح".(عبد الله العنقري2012: 411).

وقد تعرض الشاطبي في موافقاته للخوارق والكرامات في بحثه للرخص والعزائم، وذلك بجعله إياها من قبيل الرخص الخاصة، فالولي إذا انخرقت له المألوفات كأن انقلب الماء له لبنا، والرمل سويقا، والحجر ذهبا، أو نزل طعامه من السماء، أو خرج من الأرض، فاستعماله لكل ذلك هو من قبيل الرخص، والعلة في ذلك أن من شروط الرخصة ألا تقصد ولا يتسبب فيها رجاء التخفيف؛ والحال نفسه في الخوارق فكانت رخصا. (الشاطبي1997: 1/542-543)

أما عن الحكمة منها فقد نص الشاطبي على أنها تتلخص في تقوية العبد على ما هو عليه؛ لأنها آيات من آيات الله تعالى برزت عن عموم العادات حتى يكون لها خصوص في الطمأنينة، كما قال إبراهيم عليه السلام چ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰچ(البقرة: 260)، وكما قال نبينا صلى الله عليه وسلم عند ذكر فراق موسى للخضر " يرحم الله أخي موسى وددنا لو صبر حتى يقص علينا من أخبارهما". (رواه البخاري 3401، ومسلم 2380)(الشاطبي1997: 1/546).

وقد بنى على المقدمتين السابقتين وهما أن الخوارق والكرامات هي من قبيل الرخص، وأن الفائدة منها التقوية لا غير؛ نتيجة مفادها أن خوارق العادات في حق الولي بمنزلة الصدقة الواردة على المحتاج، إن

شاء ردها وطلب التكسب من وجه معتاد، وإن شاء قبل وأخذ ولا ضرر عليه في ذلك؛ ولأجل هذا المعنى لم يستند العارفون إليها، ولم يعولوا عليها من هذه الجهة، بل قبلوها علما، واقتبسوا منها ما فيها من الفوائد المعينة لهم على ما هم بسبيله، وتركوا ما سوى ذلك؛ فهي وإن كانت كرامة وتحفة، تضمنت ابتلاء وتكليفا، بل إن بعض العارفين استوت عندهم مع غيرها من العادات من حيث مشاهدة خروج الجميع من تحت يد المنة، ومن جهة مجرد الإنعام، فالعادات في نظر هؤلاء خوارق، فكيف يتشوف إلى خارقة ومن بين يديه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته مثلها، وعدوا من ركن إليها مستدرجا من حيث كانت ابتلاء لا من جهة كونها آية أو نعمة . (الشاطبي1997: 548/1).

وقد استشهد الإمام الشاطبي على ما ذهب إليه بقصص رواها القشيري عن جماعة من الصالحين في رسالته المعروفة بالرسالة القشيرية:

أما القصة الأولى: فمفادها أن أبا الخير البصري قال كان بعبادان رجل أسود فقير يأوي إلى الخرابات، قال: فحملت معي شيئا وطلبته، فلما وقعت عينه علي تبسم وأشار بيده إلى الأرض، فرأيت الأرض كلها ذهبا تلمع، ثم قال: هات ما معك فناولته وهالني أمره وهربت.

وأما القصة الثانية: فمقتضاها أن النوري خرج ليلة إلى شاطئ دجلة؛ فوجدها وقد التزق الشطان، فانصرف وقال: وعزتك لا أجوزها إلا في زورق.

وأما القصة الثالثة: فمفادها أن سعيد بن يحيى البصري قال: أتيت عبد الرحمن بن زيد وهو جالس في ظل، فقلت له: لو سألت الله أن يوسع عليك الرزق لرجوت أن يفعل، فقال: ربي أعلم بمصالح عباده، ثم أخذ حصى من الأرض، ثم قال: اللهم إن شئت أن تجعلها ذهبا فعلت، فإذا هي والله في يده ذهب، فألقاها إليوقال: أنفقها أنت فلا خير في الدنيا إلا للآخرة.

أما القصة الرابعة: فمضمنها أن أبا العباس الشرفي قال: كنا مع أبي تراب النخشبي في طريق مكة، فعدل عن الطريق إلى ناحية؛ فقال له بعض أصحابنا: أنا عطشان فضرب برجله الأرض، فإذا عين ماء زلال، فقال الفتى: أحب أن أشربه بقدح فضرب بيده إلى الأرض فناوله قدحا من زجاج أبيض كأحسن ما رأيت فشرب وسقانا، وما زال القدح معنا إلى مكة؛ فقال لي أبو تراب يوما: ما يقول أصحابك في هذه الأمور التي يكرم الله بها عباده؟ فقلت: ما رأيت أحدا إلا وهو يؤمن بها فقال: من لا يؤمن بها فقد كفر، إنما سألتك من طريق الأحوال، فقلت: ما أعرف لهم قولا فيه، فقال: بل قد زعم أصحابك أنها

خدع من الحق، وليس الأمر كذلك، إنما الخدع في حال السكون إليها، فأما من لم يقترح ذلك ولم يساكنها؛ فتلك مرتبة الربانيين. (الشاطبي1997: 1/548-550).

الكشف:من المقرر أن الكشف الذي هو"الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية، والأمور الحقيقية وجودًا وشهودًا"(الجرجاني1983: 184) من أخص طرق تحصيل العلوم عند الصوفية حتى أنهم جعلوه مقدما على المنقول حاكما عليه.(الغزالي:1/104)(ابن تيمية1991: 5/339).

وقد تعرض الشاطبي في موافقاته لهذه الممارسة في بحثه للاعتبار الشرعي للعوائد، فبعد أن قرر أن العوائد معتبرة شرعا وفق شروطها، انتقل إلى بيان من جرى في غير مضمار المعروف والمألوف عند الناس من أرباب الكشوف، هل يقرون على من زاح لهم من حجب المستور؟ فتكون أحكامهم خارجة عن أحكام أهل العوائد، أم يطالبون بالرجوع إلى ما عليه عامة وتسري فيهم أحكامهم. (الشاطبي1997: 2/501).

وقد توصل بعد النظر إلى حملهم على أحكام أهل العوائد الظاهرة، واستدل على ذلك بأن الأحكام لو وضعت على حكم انخراق المألوفات لم تنتظم لها قاعدة، ولم يرتبط لحكمها مكلف، ثم إن أولى الخلق بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الصحابة لم يقع منهم شيء من ذلك إلا ما نصت عليه الشريعة، أما ما ورد في قصة الخضر فإنه قال:ﭽ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِيﭼ(الكهف: 82) وبذلك يظهر أنه نبي، ويجوز للنبي أن يحكم بمقتضى الوحي من غير إشكال . (الشاطبي1997: 2/501-507).

المنامات وكلام أرباب الأحوال:من المعروف من رسوم الصوفية أنهم يرفعون من شأن المنامات لدرجة العمل بها، واعتبارها من مصادر الاستدلال؛ ولهذا يكثر فيهم اللهج بها، وترداد ما حصل منها للصالحين في مقام العمل والتدليل (الألوسي1981: 527)(الشاطبي1992: 1/331)، ومثلها كلام أرباب الأحوال من أهل الولايات.

وقد بحث الشاطبي في موافقاته هذه الممارسات تحت المقدمة التاسعة من مقدمات كتابه؛ والتي ترجم لها ب"صلب العلم وملحه" فبين أن العلوم المأخوذة من الرؤيا مما لا يرجع إلى بشارة ولا نذارة وإن كانت صحيحة، فأصلها غير معتبر في الشريعة، والحق أن تعرض على المعلوم في اليقظة من صنوف المعارف التي جاءت بها الشرائع، فإن وافقته كان العمل به لا بها وصارت تأنيسا، وإلا كانت مردودة.

وقد عضد ذلك بقصة رواها أبو عمر ابن عبد البر عن حمزة بن محمد الكناني؛ قال: خرجت حديثا واحدا عن النبي –صلى الله عليه وسلم– من مائتي طريق، أو من نحو مائتي طريق –شك الراوي– قال: فداخلني من ذلك من الفرح غير قليل، وأعجبت بذلك؛ فرأيت يحيى بن معين في المنام، فقلت له: يا أبا زكريا! قد خرجت حديثا عن النبي –صلى الله عليه وسلم– من مائتي طريق. قال: فسكت عني ساعة، ثم قال: أخشى أن يدخل هذا تحتچ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُچ(التكاثر: 1)،وقد علق عليها الإمام بتعليق مفاده أن الاحتجاج لم يقع بحاصل الرؤية حتى عرضت على المعلوم في اليقظة.(الشاطبي1997: 114/1–115).

ثم انتقل بعدها إلى الاستدلال بكلام أرباب الأحوال من أهل الولاية، وقد صدر بحثها ببيان وجه الاحتجاج به؛ وذلك أن من كان من هذا القبيل ممن أوغلوا في خدمة مولاهم حتى أعرضوا عن غيره جملة، يميل بهم هذا الطرف إلى أن تكلموا بلسان الاطراح لكل ما سوى الله، وأعربوا عن مقتضاه، ثم انتقل إلى بيان حكم الاستدلال بكلام من كان هذا حاله فقال"وشأن من هذا شأنه لا يطيقه الجمهور...فصار أخذه بإطلاق موقعا في مفسدة، بخلاف أخذه على الجملة، فليس هذا من صلب العلم، وإنما هو من مستحسناته وملحه".(الشاطبي1997: 117/1).

2الطقوس الصوفية:

إن مما تعرض له الشاطبي في موافقاته الطقوس المعرّفة بأهل التصوف؛ والتي تميزهم عن غيرهم من الطوائف المنضوية تحت لواء الإسلام، ومنها:

الانقطاع للتعبد والخلوة والعزلة عن الناس:من الممارسات أو الطقوس الصوفية التي يأخذ بها الصوفية الانقطاع للتعبد قصد الوقوف على عالم الأرواح، وانخراق العادات، ورؤية الملائكة وغير ذلك، وقد عرج الشاطبي عليها في بحثه للمقاصد التابعة في العبادات؛ إذ أن الغرض الأول منها تحقيق الخضوع للرب سبحانه، ولها مع ذلك فوائد تابعة منها ما قصده الصوفية مما سبق ذكره.

وقد بين الإمام أن هذا المسلك محفوف بالأخطار و الموانع في نفسه وفيما ينتج عنه:

أما في نفسه:

فإن أصل تطلب تجريد النفس والاطلاع على العوالم وراء الحس إنما هو شأن الفلاسفة؛ فهو منقول عن حكمائهم و المتألهين منهم؛ ولذلك تجدهم يقررون لذلك رياضة خاصة لم تأت بها الشريعة المحمدية .

ثم إن سلف هذه الأمة وأخيارهم لم يقصدوا بعباداتهم طلب الروحانيات، وكفى بذلك حجة أنها غير مطلوبة.

ومن جهة أخرى التعبد قصد الاطلاع على المغيبات الروحية هو بمنزلة التعبد رجاء الاطلاع على المغيبات الحسية، فإذا لم يصح الثاني لم يصح الأول. (الشاطبي1997: 152/3)

وأما فيما ينتج عنه.

فإن من كان قصده في التعبد ما سبق إن حصل بغيته صار ذلك حظه من التعبد، وأضاع الغرض الأول وهو الخضوع للرب سبحانه، وإن لم يحصل بغيته أوشك أن ينقطع عن العبادة، بل ربما شكك في بعض ما يحصل للصالحين من كرامات جزاء أعمالهم؛ فيكون حاله كمن قال الله فيهم ﭽ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍﭼ (الحج: 11).(الشاطبي1997: 147/3).

ثم إن هذه الأحوال والخوارق لا ينفك عنها قصد الابتلاء والاختبار؛ فهي وإن كانت كرامة من وجه فهي امتحان من وجه آخر، فإذا وازن العبد بين مصلحة حدوث هذه الأشياء وبين مفسدة ما يعترض صاحبها،كانت جهة العوارض أرجح؛ ولهذا لم يطلبها المحققون من الصوفية، ولا رضوا أن تكون مقصد عباداتهم. (الشاطبي1997: 152/3-153).

الشيخ المربي وطاعته:إن من آداب التربية التي يلتزم بها السالك تجاه شيخ المربي أن لا يخالفه بقلبه؛ لأن ذلك من نواقض الصحبة، وقد ذهب بعض أئمة الصوفية إلى أن هذه الزلة لا تقال وليست لها توبة(القشيري:501/2).

وقد بحث الشاطبي هذه الممارسة في موافقاته في بيان المواطن التي يكره فيها السؤال، وقرر أن ترك الاعتراض محمود بدليل ما جاء في القرآن الكريم في قصة موسى والخضر، وما ورد في الأخبار كحديث" تعالوا أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده" فاعترض في ذلك بعض الصحابة حتى أمرهم رسول الله صلى الله

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

عليه وسلم بالخروج ولم يكتب لهم شيئا(رواه البخاري114 ومسلم 1637)، ولما وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم حزن جد سعيد بن المسيب، فقال له ما اسمك قال: حزن. قال: "بل أنت سهل"، قال: لا أغير اسما سماني به أبي، قال سعيد: فما زالت الحزونة فينا حتى اليوم"(رواه البخاري6193).

ثم ختم الإمام أدلته بأن التجربة حاكمة بأن المعترض على الشيوخ محروم الفائدة، ومن ذلك حكاية الشاب الخديم لأبي يزيد البسطامي؛ إذ كان صائما؛ فقال له أبو تراب النخشبي وشقيق البلخي: "كل معنا يا فتى، فقال: أنا صائم، فقال أبو تراب: كل ولك أجر شهر فأبى، فقال شقيق: كل ولك أجر صوم سنة فأبى؛ فقال أبو يزيد: دعوا من سقط من عين الله"، فأخذ ذلك الشاب في السرقة وقطعت يده.

وقد قال مالك بن أنس لأسد حين تابع سؤاله: "هذه سليسلة بنت سليسلة، إن أردت هذا فعليك بالعراق" فهدده بحرمان الفائدة منه بسبب اعتراضه في جوابه، ومثله أيضا كثير لمن بحث عنه. (الشاطبي1997: 5/393-400).

الورد الصوفي:إن من تراتيب الصوفية وممارساتهم التي يلتزمونها قراءة أوراد مخصوصة في أوقات مخصوصة، وقد خصها الغزالي بباب خاص في إحياء علوم الدين.(الغزالي:1/30).

وقد نص الشاطبي في موافقاته على هذه المزية في بيان أن المداومة على العمل من مقاصد الشرع، فقال "فمن هنا يؤخذ حكم ما ألزمه الصوفية أنفسهم من الأوراد في الأوقات، وأمروا بالمحافظة عليها بإطلاق، لكنهم قاموا بأمور لا يقوم بها غيرهم".(الشاطبي1997: 2/405).

ثم أعقبه بالتنبيه على أن من أراد الدخول فيما لم يفرض عليه من الأعمال حق عليه ألا ينظر إلى سهولة الدخول في ابتدائه حتى ينظر في مآله فيه، وهل يقدر على الوفاء به طول عمره أم لا؟.(الشاطبي1997: 2/405).

الورع والتقلل من الدنيا:من المعهود عند الصوفية الأخذ بالأورع والتزام العزائم وهذا لاجتثات بذر الفسولة من مكامن النفوس، وقد بحث الشاطبي هذه الممارسة تحت مسألة الاجتهاد الخاص بالعلماء والعام لجميع المكلفين، وجعلها فرعا عن منهج الصحابة في الأعمال في العهد المكي؛ وهو المنهج الذي سبقوا به فلم يلحقهم غيرهم وإن اجتهد. (الشاطبي1997: 5/241-242).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ثم أعقب بيانه بالتنبيه على أن الذي يظهر بادئ الرأي للناظر في شأن المنقطعين إلى الله فيما امتازوا به من نحلتهم المعروفة؛ أنهم خالفوا العامة والتزموا بما لم يلزمهم به شرع، لكن عند التحقيق يتبين مأخذهم؛ وهو أنهم تبعوا سبيل المسلمين الأول في العهد المكي. (الشاطبي1997: 242/5).

وقد مثل الإمام الشاطبي لتأصيله السابق بما قد يشكل مع بيان وجه تخريجه فقال"فإذا سمعت مثلا أن بعضهم سئل عما يجب من الزكاة في مائتي درهم، فقال: "أما على مذهبنا؛ فالكل لله، وأما على مذهبكم؛ فخمسة دراهم"، وما أشبه ذلك؛ علمت أن هذا يستمد مما تقدم؛ فإن التنزيل المكي أمر فيه بمطلق إنفاق المال في طاعة الله، ولم يبين فيه الواجب من غيره، بل وكل إلى اجتهاد المنفق، ولا شك أن منه ما هو واجب، ومنه ما ليس بواجب والاحتياط في مثل هذا المبالغة في الإنفاق في سد الخلات وضروب الحاجات، إلى غاية تسكن إليها نفس المنفق".(الشاطبي1997: 242/5).

ثالثا: تحليل النتائج:

لا شك أن المطلع على إشكالية البحث يتطلع للوقوف على مدى تحقيق البحث للإجابة عنها؛ وهذا من خلال تحقيق الأهداف المطروحة، واستخلاص النتائج المسطرة والبرهنة عليهاوتحليلها ، وفيما يأتي عرض لأهم النتائج المستخلصة مع تحليلها:

-النتيجة الأولى وتحليلها:أن البيئة المغربية الأندلسية حوت كأختها المشرقية مجموعة من الممارسات الخاصة بطائفة الصوفية سواء ما كان من مصادر تحصيل العرفان؛ كالكشوف و المنامات ، أو ما كان من قبيل الطقوس كالتزام الأوراد، والتسليم للشيوخ، والانقطاع للتعبد وغير ذلك؛ وهذا واضح جلي من خلال تعرض أحد العلماء الذين عاشوا في هذه البيئة، وأخذوا عن علمائها لجملة من هذه الطقوس بالبحث والنظر والتقييم؛ وأقصد بهذا العالم الشاطبي في كتابه الموافقات، وهو الرجل الذي ولد في غرناطة وعاش فيها ومات فيها كذلك .

-النتيجة الثانيةوتحليلها: كتاب الموافقات للشاطبي وإن كان يبحث في أصول الشرائع ومقاصدها إلا أنه جاء حاويا لمجموعة لا بأس بها من الطقوس والممارسات الصوفية، وفي الحقيقة تعتبر هذه المزية من أفراد هذا الكتاب وميزاته التي لا توجد في أغلب كتب أصول الفقه إن لم أقل جميعها، وهذا الصنيع من هذا العلم قد مكننا في هذا الزمن المتأخر من الاطلاع على مشاهد من الممارسات التي كانت فاشية بين أحد أوسع النحل المنتسبة للإسلام نطاقا.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

النتيجة الثالثة وتحليلها: لم يكتف الشاطبي في كتابه المذكور بعرض هذه الممارسات، وإنما حاول معالجتها ببيان دخولها تحت بعض الأصول المبحوثة، مع الإشارة إلى الصحيح منها من السقيم، وهذه مزية أخرى لهذه الكتاب؛ إذ أن المعهود أن تُعالج هذه الممارسات في نطاق الجزئيات فيحكم بقبولها وردها، أما الشاطبي فقد حاكمها للكليات وهذا من تجديداته عليه رحمة الله.

خاتمة:

قد تم في هذا البحث التعرض لعنصرين: أما العنصر الأول: فتضمن التعريف بعلم الأنثروبولوجيا الدينية، مع إعطاء صورة توصيفية لظاهرة التصوف الأندلسي،وأما العنصر الثاني: فشمل التعريف بأهم الممارسات الصوفية التي وردت في كتاب الموافقات للشاطبي سواء ما تعلق منها بمصادر العرفان الصوفي كالكرامات والكشوف وغيرها، أو ما تعلق بالطقوس الصوفية كالانقطاع للتعبد في الخلوات و الورد الصوفي وغيرها.

وقد خلص البحث إلى ثلاث نتائج هي: أن البيئة المغربية الأندلسية حوت كأختها المشرقية مجموعة من الممارسات الخاصة بطائفة الصوفية، وأن كتاب الموافقات للشاطبي وإن كان يبحث في أصول الشرائع ومقاصدها إلا أنه جاء حاويا لمجموعة لا بأس بها من الطقوس والممارسات الصوفية، وأنه لم يكتف في كتابه المذكور بعرض هذه الممارسات، وإنما حاول معالجتها ببيان دخولها تحت بعض الأصول المبحوثة، مع الإشارة إلى الصحيح منها من السقيم.

وأختم ببيان جملة من المقترحات هي:

-الاعتناء بمقارنة أحكام الشاطبي على هذه الممارسات بأحكام غيره من علماء الإسلام .

-البحث في إسهامات الشاطبي في دراسة الظواهر المجتمعية في كتابه الموفاقات.

-مقارنة الممارسات المذكورة في البيئة الأندلسية بأختها في البيئة المشرقية.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

قائمة المراجع:

1. ابن الأبار محمد بن عبد الله، التكملة لكتاب الصلة، ت:عبدالسلامالهراس، دارالفكرللطباعة – لبنان–، سنة:(1415هـ/ 1995م).
2. ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، درء تعارض العقل والنقل، ت:محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية– المملكة العربية السعودية– ط:2، سنة:(1411 هـ / 1991 م).
3. الآلوسي نعمان بن محمود، جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، مطبعة المدني، سنة: (1401 هـ/ 1981 م).
4. الجرجاني علي بن محمد، كتاب التعريفات، ت:جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان–، ط:1، (1403هـ/1983م).
5. حسن عالي و بوشيخاي أسمهان،موسم(2015–2016)، دراسة الأنثروبولوجيا من وجهة نظر الدين، مجلة أنثروبولوجيا الأديان –بجامعة تلمسان–، العدد 17–18، ص314.
6. حسن كريم ماجد الربيعي وفريقه البحثي،المعجم الموسوعي لمصطلحات الحداثة، مركز الفكر الإسلامي المعاصر.
7. روجي باستيد، الأنثروبولوجيا الدينية، ت:لحسن الصديق، وهو منشور في الموقع https://hekmah.org/ بتاريخ:2017/1/12.
8. الشاطبي إبراهيمبنموسى، الاعتصام ، ت: سليم الهلالي، دار ابن عفان– السعودية–، ط: 1،سنة:(1412هـ/1992م).
9. الشاطبي إبراهيمبنموسى،الموفقات ، ت:مشهور حسن آل سلمان،دارابنعفان، ط:1، سنة:(1417هـ/ 1997م).
10. شاكر مصطفى سليم، قاموس الأنثروبولوجيا، جامعة الكويت، ط:1، سنة:(1981).
11. عبد السلام الغرميني، المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري، دار الرشاد الحديثة، ط:1 ، سنة:(1420 هـ/2000م).
12. عبد الله العنقري، كرامات الأولياء –دراسة عقدية مقارنة في ضوء الكتاب والسنة– ، دار التوحيد–الرياض– ط:1، سنة: (1433هـ/2012م).
13. عياض بن موسى، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ت: مجموعة منالباحثين، مطبعة فضالة–المغرب– ط:1 سنة: (1699م).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

14. الغزالي محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة – بيروت-.
15. القشيري عبدالكريمبنهوازن،الرسالةالقشيرية، ت:عبدالحليممحمود ومحمودبنالشريف، دارالمعارف-القاهرة-.
16. كلود ريفيير، الأنثروبولوجيا الاجتماعية للأديان، المركز القومي للترجمة، ط:1، سنة:(2015م).
17. محمد المنتار2015-03-16، قراءة معرفية في منهج التصنيف الأصولي عند المالكية، مقال منشور في موقع-الإحياء www.alihyaa.ma/Article، بتاريخ2018/21/23 .
18. مصطفى تيلوين، مدخل عام في الأنثروبولوجيا، دار الفرابي، ط:1، سنة:(2011م).
19. نبيل الحسني، الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية عند مجتمع الكوفة، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، ط:1، سنة:(1430هـ/2009م).